تسير على خطة الوزارة السابقة في تعميم الاصلاح ونشر المعارف بعناية سمو امبرنا المعظم الساهر على مصالح رعيته

علاقة المشرق بالمغرب

للمشرق في عيون فضلاء المغرب مقامٌ رفيع وشأن عظيم. فيقدمون على درس عادياته بالهيبة والوقار كما يقدمون على درس الفلسفة وعلم الكلام. وينظر علماؤهم في اخلاق شعوبه بعين التجلة والإكرام لانهم برونهم عريقين في الفضل راسخين في النبل مرّت عليهم الاحقاب وطوحت بهم نوائب الزمان ولم يزالوا مستمسكين بعرى الشهامة وكرم الاخلاق. قال احدهم وهو الشهير مكس مُلر إمام علماء اللغات الشرقية في خطبة تلاها حديثاً ببلاد الانكليز اننا ندرس في المشرق اجلّ المسائل وارفعها شأناً المسائل التي هي الغرض الاسمى من مباحث الانسان فاننا ما دمنا ننظر الى الشرقيين نظر الغرباء ولا نرى في المصريّ الاّ جثة محنطة ولا في البابليّ الاّ صنماً منقوشاً في الصخر ولا في الهندي الاّ رجلاً عائشاً في فيافي الاحلام ولا في الصيني الاّ رجلاً يحب الهزل والمزاح فحكماء المشرق يبعدون عنا بعداً شاسعاً ولسنا من علماء المشرقيات. واما اذا اعتبرنا اهالي المشرق اناساً مثلنا في القوّة والضعف والكمال والنقص والمقاصد والمطالب فحينئذٍ يجوز ان يُطلق علينا اسم دارسي المشرقيات وهي نوع الانسان الذي هو واحد مهما اختلفت لغاته ومظاهره »

والشرق اقدم حضارةً من الغرب فالمصريون يعتدون في تاريخهم الى اربعة آلاف سنة قبل المسيح بل الى اكثر من ذلك والصينيون الى اكثر من اثني عشرة سنة قبل المسيح والبابليون والفينيقيون الى مثل ذلك او الى اكثر منه. وقد طرق حكماء المشرق جميع ابواب الحكمة قبل ان اوى اهالي المغرب الى الكهوف والخصاص. ثم طرأ على المشرق من الطوارىء الطبيعية والسياسية ما اوقف نموه وزعزع دعائم مجده فامسى في الحالة التي وجدناه فيها لمّا وُجدنا فيه هدفاً لسهام النوائب الوطنية وغرضاً لمطامع الامم الاوربية لا تدخل اشعة النور خروق سجنه الاّ لتريه ما يحيط به من آثار الذل والشقاء وعلامات الضعف والوناء

وفي الكون ناموس لا يحول ولا يتغيّر وهو ان الاخلاق التي ثبتت على توالي الاعقاب يعسر زوالها واذا زالت لم يعسر ان تعود الى ما كانت عليه حالما تتوفّر لها المعدات اللازمة. فالثمر البستاني الذي طال اعتناء الانسان به قروناً كثيرة حتى بعد عن البري منه بعداً

شاسعًا ثم أُهمل مدة فكاد يعود برًّا لم يتعذر عودهُ الى حالهِ بقليل من الاعتناء وكنا امم المشرق لا تلبث ان تمهد لما سُبل الارتقاء التي مهدت لاهالي المغرب حتى تعود الى البناء وتطالب بمجدها السالف . ولكنها لا تبلغ هذه الحالة حتى ترى نفسها مقيدة بقيود اشد من القيود التي كسرتها واصعب مراسًا . فان امم المغرب لاتزال تجاهد جهاد الابطال ليكون لها السلطة النافذة والقول الفصل في بقية الممالك والربح الاكثر من جنى شعوبها . والنفس مولعة بالكسب والظلمُ من شيم النفوس فان تجدْ ذا عفّة فلعلّة لا يظلمُ

وقد علم قراء المقتطف مِلْ البتناهُ فيهِ المرّة بعد المرّة ان مملكة يابان احدى ممالك المشرق قد استفاقت من سباتها الطويل وسعت في اصلاح شؤونها السياسية والعلمية فسنّ سلطانها دستورًا لشعبهِ وانشأ لهم المدارس الكثيرة وفتح لهم ابواب الارتقاء وكان ذلك بمعونة كثيرين من فضلاء الاوربيين . ولكنّ تجار الاوربيين وغالبهم لا يهتم الّا بالربح مكسبهِ لا يريدون ان يسلّموا بارتقاء تلك البلاد لتبقى امتيازاتهم فيها على ما كانت عليهِ منذ ثلاثين سنة كما يظهر من محاولتهم عدم تغيير المعاهدات التجارية التي عُقدت بين دولهم ودولة يابان منذ ثلاث وثلاثين سنة . وهاك بيان ذلك بقلم احد اليابانيين انفسهم ومنهُ تظهر شهامة المشارقة وكراهتهم للنير الثقيل المذي على عواتقهم حينما كانوا قصرًا قال

"كانت بلاد يابان منذ ثلاث وثلاثين سنة مجهولة لدى ممالك اوربا وكانت حكومتها استبدادية ولم يكن فيها شيء من سمات العمران الاوربي ولكنها قد تغيرت في هذه المدة الوجيزة تغيرًا تامًّا في جميع الامور حتى ان ما صلح ليابان القديمة لا يصلح ليابان الحديثة

"وكان مآل المعاهدات المشار اليها آنفًا ان يفتح للاجانب ستة مراقئ ويخصص لهم في المدينة المتصلة بكل مرفإ منها ارض يسكنون فيها ويتجرون ويحق لهم ان يجولوا في داخلية البلاد الى بعد اربعة وعشرين ميلاً واذا ارادوا ان يجتازوا ذلك لزمهم جواز خصوصي . وكلهم غير خاضعين لقوانين بلاد يابان بل لقوانين بلادهم التي يحكم فيها في قنصليتهم . ولا يجوز لمملكة يابان ان تزيد رسوم الجمارك على البضائع الاجنبية الداخلة بلادها عن خمسة في المئة من الثمن ولا ان تضرب رسوم الجمرك على البضائع التي لم تذكر في تلك المعاهدة . ولكن لحسن الحظ وضع في المعاهدة بند يقول فيهِ انهُ يجوز تحوير هذه المعاهدات بعد اربع عشرة سنة اي سنة ١٨٧٢

"وقد مرّت الآن اثنتان وثلاثون سنة ارتقت فيها بلاد يابان ارتقاء لا مثيل لهُ في تواريخ البشر وعظم شأنها في المشارق والمغارب فانتقلت حكومتها من الحكومة الاستبدادية

الى الدستورية المقيدة بمجلس نواب وافلح اهاليها في ظل الامن ولم يلتجئوا الى سفك الدماء كما فعل اهالي اوربا كلما انتقلوا من حال الى حال. ونُظِّم جيشها وعمارتها على الاسلوب الاوربي وجُهِّزا باحدث العدد واكثرها اتقانًا بدل السهام والقسي وأُبدلت محاكمها القديمة بمحاكم انشئت على النمط الاوربي. وانتظم البوليس ايضًا احسن انتظام. والتعليم وهو اساس كل تقدم وطني اعتُني به اشد الاعتناء فانتشر في كل انحاء المملكة وأُدخلت اليها جميع العلوم الحديثة

"واليك طرفًا من آثار تقدمها فقد أُدخل فيها نظام البريد والتلغراف سنة ١٨٧٣ وظهر من التقرير الرسمي لسنة ١٨٨٧ ان عدد الرسائل التي نقلها البريد في بلاد يابان تلك السنة بلغ ١٣٧ مليونًا وعدد التلغرافات التي أُرسلت فيها مليونين ونصف مليون والزيادة السنوية عشرة في المئة. وانشاء سكك الحديد والمناجم والمرافيء جارٍ على قدم وساق. وقد تضاعفت تجارة البلاد البحرية في السنوات العشر الاخيرة وزادت اربعة اضعاف عما كانت عليه منذ عشرين سنة. واليابانيون غير مكتفين بذلك بل هم باذلون الجهد ليزيدوا ارتقاء في كل مطلب من المطالب. ومع ذلك كلهِ فالمعاهدات التي عُقدت مع دول اوربا قبلما بزغت في بلاد يابان اول اشعة هذا التقدم لم تزل على ما كانت عليه

"وبلاد يابان كجبلها فوجي الشهير نهضت دفعةً واحدةً من الحضيض الى الاوج وهي مثل ممالك اوربا الثانوية اذا لم تكن مثل الممالك الاولى في كل امر. ولما فتحت عينيها ونهضت من سباتها رأت عدم المساواة بين امورها الوطنية وعلاقاتها التجارية فانها مع استقلالها التام قد قُيِّدت ادارتها القضائية والجركية بارادة الدول الاخرى وحُرِمت حكومتها من الاستقلال الذي هو حق واجب لها. ولذلك رأى شعبها ان لا بدَّ له من حذف البنود التي تنقضي عليهم بهذا الذل من المعاهدات المشار اليها كما يرى كل شعب يستحق ان يسمَّى شعبًا. وقد انفقت الحكومة في السنين الاخيرة نفقات طائلة على ما قامت به من الاصلاح وانشاء المباني العمومية فاضطرَّت ان تزيد الضرائب على الشعب للقيام بهذه النفقات لان المعاهدات لا تخولها ان تزيد الرسوم الجركية. هذا ناهيك عن ان الاجانب الذين بيننا يتذرعون بحماية قناصلهم لاهتضام حقوق الوطنيين. ولهذه الاسباب جميعها رأت يابان سنة ١٨٨٢ ان تحوِّر المعاهدات فكانت النتيجة ان ازورَّت عين الدول عنها ونظرن اليها شزرًا وحتى الآن لم يجبن لها طلبًا واشتدَّ قلق اليابانيين من جراء ذلك حتى اضطرَّت الوزارة ان تستعفي مرَّتين في ثلاث سنين واضطرَّ اثنان من وزراء الخارجية ان يستعفيا وهم بعضهم على واحد منهما وكاد يوقع به واشتدَّ قلق الناس وشغبهم لعصا الطاعة حتى اضطرَّت الحكومة ان تنفي كثيرين منهم

وسبب ذلك كلهِ ان مملكة مستقلة طلبت ان تنصفها مالك الارض وتسلّم لها بحقوقها الشرعيّة

"وقد انقلب الامر الآن فغاب الوطنيون الى السكينة ولجأ الاجانب الى الاضطراب فقد شاع ان واحدًا من الاجانب المقيمين في يابان بلغهُ ان من غرض وزير خارجيّة انكلترا ان يسلم بمطالب بلاد يابان وللحال جمع اكثر من ثلثمئة شخص من الاجانب وانتخبوا لهم رئيسًا احد تجار الشاي وقرّ قرارهم على ما يأتي

"اولاً انهُ لم يحن الزمان لفصل الدعاوي التي تقع بين الوطنيين والاجانب في محاكم اليابانيين ولا لتحديد الزمن الذي يمكن فيهِ ذلك. وثانيًا انهُ ليس من العدل ان تغيّر طرق ملكيّة الاراضي التي اشتراها الاجانب من حكومة يابان بغير رضاهم"

"وأُرسل هذا القرار بالتلغراف الى اوربا ووصل الى كل البيوت التجاريّة الشهيرة في لندن ومنشستر وبردفرد وغلاسكو ولفربول وباريس ولیون وبرلين وهمبرج وروسية وميلان وبرن وامستردام ونيويورك ولسبن والى كل الجرائد الشهيرة في اوربا واميركا

"ويظهر من هذا القرار ان الذين اقرّوا عليهِ يأنفون ان يتركوا المحاكم القنصليّة ويستعيضوا عنها بمحاكم الحكومة ولا يثقون بقوانين الحكومة ولا بمحاكمها. وهذا امرٌ طبيعي لان ترك المألوف صعب ولان الاجانب اعتادوا ان ينظروا الينا كاولاد صغار واغوتهم العادة عن ان يروا الولد الصغير قد شبّ وصار رجلاً ولذلك لا اجادلهم في ما هو طبيعي ولكني اظن انهم لو رفعوا الغرض ونظروا في احوال البلاد بعين النزيه لرأوا ان محاكمها تستحق ثقتهم وان تنفيذ المعاهدات يعود عليهم بالنفع"

ثم ذكر الكاتب كلامًا طويلاً للمستر تشمبرلن الانكليزي في وصف المحاكم والقوانين اليابانيّة ويظهر منهُ ان القوانين مبنيّة على قانون نبوليون وان القضاة يتلقون فن القضاء في مدارس قضائيّة قانونيّة. ثم قال وهب ان محاكمنا لم تبلغ مبلغ المحاكم الانكليزيّة فهي ليست دون محاكم غيرها من الممالك التي يخضع الانكليز لمحاكمها اذا كانوا مقيمين فيها. وغني عن البيان انهم يقحمون جميع المخاطر ليجدوا اسواقًا لمتاجرهم ولا يعنيهم حرفٌ خط الاستواء ولا برد القطبين. وتراهم يوغلون بين قبائل لا تراعي لهم حرمةً ولا تحجب لهم دمًا كل ذلك لاجل الكسب فعلى مَ يرفضون ما تعرضهُ حكومة يابان وفيهِ اعظم مكسب للبلاد الانكليزيّة كلها لان قيمة الوارد الى بلاد يابان والصادر منها لم تكن سوى ٢٢ مليون ريال منذ عشرين سنة فبلغت سنة ١٨٨٤ اكثر من ١٣٦ مليون ريال وربع هذه التجارة كلها بيد الانكليز الذين بيننا. ولو أُصلحت المعاهدات لزادت هذه التجارة اضعافًا. فهل المسئلة مسئلة

قضاة ومحاكم وهل يحسبون القوانين اليابانيّة اشد صرامة وفتكاً من اقليم خط الاستواء ووحوشه المفترسة وقبائله المتوحشة كلاّ فانهم اعقل من ان تبدو منهم هذه الخفافة بل هم يقصدون ان يحموا مصالحهم الخصوصيّة واوضحوا لها مصالح بلادهم و بلادنا كما سيجيء "

ثم بيّن ان مملكة يابان اجّرت (حكرت) ممالك اوربا قطعاً مخصوصة من ارضها وضربت عليها اجرة سنويّة تتقاضاها من النزلاء في تلك الاراضي ولا تسمح لهم ان يقيموا في غيرها وعفتهم من بقيّة الضرائب وذلك بموجب المعاهدات المتقدّم ذكرها وفي نيتها الآن ان تملكهم تلك الاراضي اسوة لهم برعاياها وتسمح لهم ان يتملكوا ما شاؤوا غيرها بشرط ان يدفعوا الضرائب التي يدفعها غيرهم من الوطنيين . وبما ان نزول الاجانب محصور الآن في تلك الاراضي فالمحتكرون لها يربحون منها ارباحاً فاحشة فاذا اتيح لغيرهم من الاجانب ان يبتاعوا غيرها قلّ ربحهم منها فهم يناضلون هذه المناضلة من اجل مصلحتهم الشخصيّة

ولو تصفّحتَ ما يكتبه جميع اهالي اسيا وافريقية واطّلعتَ على شكاويهم من الاوربيين لوجدت مفزاها واحداً وهو ان فريقاً من التجّار والمتعيشين الّذين بينهم الدَّ لهم المكسب فارادوا ان يستأثروا به ويمنعوا اخوانهم من مشاركتهم فيه ولكن ليس كل التجار كذلك كما ثبت لنا بالخُبْر والخبر بل كثيرون منهم من افضل الناس

ثم ان اوربا واميركا ترسلان الى ممالك المشرق فريقاً آخر غيرا ولئك التجّار وهم المبشرون وهؤلاء يصلحون ما يفسده اولئك ولولا ذلك لتفاقم الخطب جدّاً . فلم يكد هولاء التجار يقرّوا على القرار المتقدّم ذكرهُ حتّى اجتمع المبشرون وكتبوا الى سفير انكلترا في بلاد يابان الكتاب الآتي

" نحن الموقعون هذه العريضة من رعايا الدولة الانكليزيّة المقيمين في بلاد يابان في خدمة التبشير قد اضرّ بنا تأخير تنفيذ المعاهدات بين حكومة جلالة امبراطور يابان والدول الاجنبيّة ولذلك نتقدّمنا الى سعادتكم بما يأتي وهو اننا نريد ان نظهر لسعادتكم اننا متيقنون ان الحكومة اليابانيّة قد سعت سعياً مشكوراً ونجحت في وضع قانون الجنايات والقانون المدني وفي تنظيم محاكمها لكي تكون الاحكام فيها مثلما هي عند ارقى دول اوربا . ولذلك نرجو ان يتم تنفيذ المعاهدات حالاً لان تنفيذها ينيل الوطنيين حقوقهم ويحفظ حقوق الانكليز المقيمين هنا عن تولبو عاصمة يابان في ٣ اكتوبر سنة ٩٠ "

هذا وقينا الامل الوطيد ان النهضة الوطنيّة التي نهضتها بلاد يابان تنهضها جميع بلدان المشرق فتنال حقوقها الطبيعيّة ويكون فضلاء الانكليز من اكبر المساعدين لها على ذلك